الفصل الأول

تفسير الظواهر التاريخية

نعود مرة أخرى لنتسائل ... ما هو التاريخ ؟ ما الذى يكسب التاريخ قسماته ؟ كيف يمكن التعرف على أبعاده وحدوده ؟ إلى أي مدى يمكن تفسير وتحليل وتعليل الظواهر التاريخية باعتبار أن التاريخ متسلسل الحلقات ؟

من الثابت أن التاريخ هو الأطار الذى ضم جميع الفكر البشرى بنشاطاته الدينية والإجتماعية والمادية . وحفظ هذا كله عن الأجيال السابقة ، فأصبح بمثابة التجربة المدونة أو بمعنى آخر تجارب علمية استخدمت وظهرت نتائجها ، وأثبت التاريخ بذلك أنه متجدد الحياة والحيوية حيث وفر على العلماء مشقة خطوات متعددة من مراحل بحوثهم سبق تجربتها .

وتتباين وجهات النظر ، فعلماء الاجتماع يرون أن التاريخ هو أصل العلوم الاجتماعية ، الأصل فيه إدراك الإنسان لحقيقة وأصول وجوده ككائن اجتماعى ، فى حين أن التاريخ كان مجالاً لدراسات فكرية أخرى من علماء الدين والفلسفة ، ومن هنا تأتى عظمة الباحثين الاجتماعيين والفلاسفة ، ولكنه يخاطب كل من يطلع عليه فيستهويه ويجد فيه مجال توجيه قدرته الفعلية فالتاريخ هو المصحح الجوهرى لكل لون من ألوان التخصص فى العلوم الإنسانية ، وليس من المبالغة القول أنه أوسع هذه العلوم مجالاً لاحتوائه كل أوجه الحياة [1] .

فالتاريخ يشتمل على المعلومات حول نشأة الكون كله ، وما جرى على سطحه من أحداث ، وقد بدأ المؤرخون الأقدمون كتاباتهم عن نشأة الأرض ، ونهج المؤرخون

المحدثون نفس المنهج حيث بدأ المؤرخ الانجليزى هربرت جورج ويلز Herbert George Wells كتابه " موجز تاريخ العالم " بدراسة نشأة الكون والأرض ، وما ظهر على سطحها من مظاهر الحياة المختلفة ثم تدرج فى عرض تواريخ الأمم والشعوب والحضارات المختلفة منذ نشأتها حتى العصر الحديث معبراً فى ذلك عن وحدة البشرية [٢] .

يقول نوح كريمر فى كتابه " تاريخ العراق القديم " أن التاريخ يبدأ فى سومر ، ويتفق معه أرنولد توينبى فيقول : أن المتخصص فى تاريخ العراق القديم وبالذات التاريخ السومرى هو أحسن المتخصصين فى التاريخ حيث بإمكانه أن يمدنا بمعلومات عن بداية كل شىء فى تاريخ الإنسان وعن الأصول والأوائل ، وهو بهذا يقدم إجابة مقنعة ترضى الباحثين وتجيب عن سؤال الإنسان الدائم فى بحثه عن الأوائل فى تاريخ الحضارة .

وتأتى تساولات كريمر السابقة [٣] حول تعميق تعريف لمفهوم التاريخ لتكون معبرة لكل باحث عن الأصول التاريخية لتاريخ وحضارة الإنسان والقيم الدينية والأخلاقية والأساطير والنواحى الاجتماعية والاقتصادية وأهميتها فى تاريخ الإنسان .

* ما هى القيم الأخلاقية الأولى للإنسان ؟

* ما هى أفكاره الدينية ؟

* كيف كانت آراؤه السياسية والاجتماعية والفلسفية الأولى ؟

* من صنع تواريخه الأولى ؟

* كيف كانت أساطيره – ملامحه – أناشيده ؟

* كيف كان أول عقد سجله ؟

* من هو أول مصلح إجتماعى ؟

* متى كان أول تخفيض للضرائب ؟

* من هو المشرع الأول للقوانين ؟

* كيف كان مدارس الإنسان الأولى ؟

* كيف كانت مناهجها وتلاميذها ؟

والواقع أن عند مناقشة تساؤلات كريمر فإن الباحث يصل إلى نتيجة مفادها أن التاريخ يعنى حياة الإنسان على الأرض منذ أن بدأ التدوين سواء فى العراق بالخط السومرى أو فى مصر بالكتابة الهيروغليفية .

وإذا أخذنا بالافتراض القائل بأن التاريخ يبدأ بقيام نظام سياسى للإنسان ، فمعنى ذلك أن تاريخ الإنسان يبدأ فى مصر من خلال نظام سياسى شهد تطوراً اجتماعياً واقتصادياً ونضوجاً فكرياً واكتمالاً عقلياً (٤) .

ويكاد معظم المؤرخين يقصرون معنى التاريخ على بحث واستقصاء الماضى (٥) ، كما يدل على ذلك لفظ Historia المستمد من الأصل اليونانى القديم ، أى كل ما يتعلق بالإنسان منذ بدأ يترك آثاره على الأرض والصخر بتسجيل أو وصف أخبار الحوادث التى مرت بالشعوب ، كما تدل كلمة تاريخ على مطلق مجرى الأحداث التى يصنعها الزعماء أو الشعوب .

والواقع أن الإنسان البدائى هو الذى يعزى إليه ظهور التاريخ بدءاً بصورته الأولية ومروراً بتدرج التعبير التاريخى مختلطاً بعناصر من الفن كالرسم والنقش على

الحجر ، وعندما سارت البشرية فى مضمار الحضارة بمختلف صورها فقد أخذ التاريخ يشكل أساساً جوهرياً فى تسجيل موكب البشرية باعتباره – أى التاريخ – المرآة أو السجل الذى يقدم ألواناً من الأحداث ومزيداً من الأفكار وصنوفاً من الأعمال والآثار .

ومن المسلم به أن التاريخ يعرض الأحداث على يد الإنسان بطريق مباشر وفى ظروف معينة ، والإنسان ابن الماضى فهو ليس ابناً لأبويه فحسب ، بل هو ثمرة الخلق كله منذ أزمان سحيقة ، وهناك علاقة وثيقة ومباشرة بين حياة الفرد وتطور الحياة عبر الأزمنة والعصور حتى أن بعض المفكرين يذهبون إلى القول بأن التاريخ برمته هو تاريخ معاصر ، فالإنسان لا يستطيع أن يفهم نفسه وحاضره دون فهم الماضى ، ومعرفة الماضى تكسب الإنسان خبرة السنين ، والتأمل فى الماضى يجعل الإنسان يرى ما لا يراه فى نفسه بسهولة من مزايا الغير وأخطائه .

ويمثل ماضى الشعوب بشتى صور الأحداث فسواء فى عهود المجد والقوة والرفاهية ، أم عهود الكوارث والآلام والمحن ، ولا يعد من الشعوب المستحقرة أولئك الذين ليس لهم ماضى مدروس .

وقد استطاع الإنسان أن يميز فترات تاريخه الطويل ، وأن يجعل من كل حقبة من حقب التاريخ فصلاً رائعاً من فصول كتاب يشفى علة الباحث عن الحقيقة ، ويساعد على فهم تاريخ الإنسان عبر العصور ، فالتاريخ يمثل معاناة الإنسان نتيجة لما عاناه العقل البشرى وممارسته لأنواع من التجارب لا يمكن للمؤرخ مهما حاول استقراء الماضى ، ومهما بذل فى تصورها ، فإن معاناة الإنسان صانع التاريخ على الأرض أكبر من كل تصور يرقى إلى الاحساس بها وإدراك أبعادها .

وقد وضع المؤرخ البريطانى الذائع الصيت أرنولد توينبى Toynbee نظريته القائلة بالتحدى Challenge والاستجابة Respense حيث حاول أن يمثل معاناة الإنسان فرسمها على شكل تحديات عنيفة تشمل ما يحيط بالإنسان من ظلام وبرد وحيوانات وطوفانات وزلازل ومجاعات إلى غير ذلك من الظواهر الطبيعية وحروب ودمار من صنع الإنسان ذاته ، فتكون مجابهة الإنسان لها بالاستجابة والتحدى ، والتحدى ليس دائماً تحدياً سلبياً . فقد يكون التحدى فى قضية تمس رخاء الإنسان كما أنه ليس بالضرورة أن تكون الاستجابة سلبية ، فحين عرف الإنسان طوفان الأنهار كانت استجابته لذلك بالتفكير فى إقامة السدود ، وحين تمثلت التحديات فى الحروب والدمار، بدأ الإنسان يفكر فى السلام ، وحين فكر الإنسان فى البحث عن الطعام ، وحين كان ، متمثلاً فى التجوال والترحال كانت مجابهة الإنسان لذلك بالبحث عن الاستقرار ، ومن ثم كان لتلك النظرية دورها فى تطور البناء الحضارى للمجتمعات البشرية و هى تنطبق على كل البيئات وكل العصور .

تقسيمات التاريخ :

وقد قسم المؤرخون التاريخ تقسيمات نظرية تسهل على الباحث تحديد فترة زمنية أو مجتمع بشرى بعينه ، أو نظام سياسى بذاته لدراسته وبحثه على الرغم من علمهم بأن التاريخ البشرى متصل ومستمر .

وإذا ألقينا نظرة على التقسيمات العامة للتاريخ القديم نجد أن المدارس التاريخية (٦) كلها تنحو فى أغلب الأحيان تجاه التقسيمات القائلة بما قبل التاريخ Pre History ثم العصر التاريخى . ويبدأ العصر التاريخى فى مصر بقيام أول نظام سياسى مستقر وهو ما يعرف اصطلاحاً بالعصر الطينى أو العصر التينى الذى يمثل

عصر الاسرتين المصريتين الأولى والثانية ، ويلى ذلك عصر الازدهار الحضارى والاستقرار السياسى ويطلق المؤرخون عليه اصطلاح « عصر الدولة القديمة » وأحياناً « عصر بناة الأهرام »، ويلى ذلك تقسيمات التاريخ المصرى القديم : عصر الفوضى والاضمحلال الأول أو عصر الانتقال الأول وهو ما يقتضى مزيداً من البحث والتفسير والتعليل ومناقشة آراء المؤرخين للتساؤلات الآتية :

ما الذى حدث فى مصر فى ذلك الوقت ؟ وكيف يمكن أن يعقب عصر الاستقرار السياسى عصر من الفوضى والاضمحلال ؟ وما هى الأسباب التى أدت إلى هذه الظروف وقادت إلى تأجج عناصر الثورة فى نفس الإنسان المصرى ، وما أعقب ذلك من حدوث أول ثورة اجتماعية فى تاريخ الإنسانية يوم تمرد الفلاح المصرى ورفض الاعتراف بسلطة الملك الذى لم يتمكن من توفير الأمن وحماية السيادة الوطنية .

ثم يأتى عصر جديد من الاستقرار السياسى عقب عصر الانتقال الأول بما اتسم به عصر الاستقرار السياسى من مرحلة النضج والاكتمال ، وترسيخ أقدام الحضارة لتستقر على القوة فى عصر الدولة الوسطى التى استمرت تحكم مصر الموحدة المستقلة ، ثم تبع ذلك عصر آخر من الفوضى والاضمحلال أو الانتقال الثانى الذى تعرضت فيه مصر لغزو الهكسوس وعاشت فترة من التمزق السياسى والفوضى الأسرية والضعف الاقتصادى حتى برز فيها طامس ومن بعده أحمس ومن ورائهما شعب مصر فتحررت الأرض من احتلال الهكسوس والنفوس من الضعف وأعيد بناء الحضارة المصرية لتقوم الدولة الحديثة فى مصر القديمة ثم يعقب ذلك العصر المتأخر .

وقد قسم المؤرخون الأسرات المصرية إلى ثلاثين أسرة انتهت بدخول الاسكندر الأكبر مصر لتلتقى فيها حضارة الشرق وحضارة الغرب ويمتزج الفكر الإنسانى

لتظهر حضارة جديدة يبدأ عصر تاريخى جديد .

إن التاريخ الحقيقى هو نتاج عقول البشر ، ودليل على وجودها ووجدانها ، ومن أعظم ما يدل على عمق الفكر عند الإنسان القديم وخاصة فى مصر ، حرصه على البحث الدائم عن الحقيقة الأولى فى حياة الإنسان وهى الموت ، ولاشك أن الميلاد ، ميلاد أى شيء أسهل فى الاستيعاب والاقناع من الموت ، وقد حاول الإنسان تفسير هذه الحقيقة المؤكدة ... حقيقة الموت ، وذلك منذ بدء الخليقة ، ومع ذلك فقد ظل الإنسان حائراً مكتوف الأيدى أمام هذه الحقيقة الكبرى ، وهنا يجب التنبيه إلى أن الإنسان المصرى القديم قد وضع أعظم ملحمة فى تاريخه الفكرى وهى كتاب الموتى The Book of The Dead الذى يشرح نصوص المقابر المصرية القديمة أو بالأحرى النصوص الجنائزية والذى يصل بالمصرى إلى الحقيقة القائلة بأن الروح لا تفنى ولا تموت The Soul is an eternal being which under no circumis tances could die.

وهكذا أدرك الإنسان المصرى القديم عن قناعة وإيمان وجود مكان ما ينعم فيه الإنسان بالخير والسعادة الأبدية بعد الموت والبحث عن الخلود وهو ما يعتبر من العلامات المميزة لتاريخ الفكر فى الشعوب القديمة ، ومن الثابت أن ملحمة جلجامش فى العراق وما قدمه المصريون القدماء لأعظم دليل على ذلك ، وهو ما يؤكد – أيضاً – أن التاريخ كان دائماً بمثابة التفاعل الفكرى بين الإنسان وما حوله من ظواهر الكون مترجماً فى نتاج ذهنى ما زال المؤرخ الحديث يقف حائراً مبهوراً أمامه ، فضلاً عن أن المؤرخ ينبغى أن يعى تتابع الأحداث وترتيبها والأشخاص المؤرخين فيها والعصور السياسية المختلفة (٧) .

التـــاريخ علـــم وفـــن :

يعتبر المؤرخ الأمريكى ويل دورانت Will Durant من أكثر المؤرخين ذيوعاً نظراً لما أورده فى كتابه قصة الحضارة The Story of Civilization من عرض واف عن تراث وعصر الإيمان وعصر النهضة وعصر الاصلاح الدينى وبداية عصر البحث العقلى وعصر لويس الرابع عشر ، فضلاً عن عصر فولتير وعصر جان جاك روسو والثورة الفرنسية حتى سقوط الباستيل فى عام ١٧٨٩ وشرح دورانت حال الإنسان البدائى ونموه التدريجى ودور الملوك والحكام ورجال الدولة ومشاكل السياسة والحرب والسلام ومسائل الفلسفة والفكر والدين والعلم والأدب وأحوال المجتمعات والأمم فى تقلبها بين المجد والهبوط والرفعة والتدهور والقوة والانحلال وذلك فى بساطة وسهولة وعمق ، وأن المجتمع الإنسانى هو فى حالة حركة دائبة لا تتكرر ولا تعيد نفسها على المنوال الذى حدثت به فى الماضى (٨) .

وفى إطار الجدل المثار حول أهمية علم التاريخ ومدى اعتماده على التجريب كمنهج سائد فى العلوم الاجتماعية ، فهناك العديد من الآراء القيمة لرجال العلم والأدب والتاريخ والاقتصاد . فهناك وليام ستانلى جيفونز William Stanley Gevons الذى يرى أن التاريخ لا يمكن أن يكون علماً لأنه يعجز عن اخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة ، ويضيف جيفونز بأنه يستحيل استخلاص قوانين علمية يقينية ثابتة من دراسة التاريخ على النحو الماثل فى علم الطبيعة أو الكيمياء مثلاً ، وأن قيام عنصرى المصادفة وحرية إرادة الشخصية الإنسانية يقوض الجهود التى تهدف إلى اتسام التاريخ بصفة العلم (٩) .

فى حين يرى ف.هرنشو [١٠] أنه على الرغم من عدم استخلاص قوانين علمية ثابتة من دراسة التاريخ على غرار العلوم الطبيعية ، فإن هذا لا ينفى عن التاريخ صفة العلم Science انطلاقاً من مفهوم مفاده أنه يكفى فى إسناد صفة العلم إلى موضوع ما ، أن يستمر الباحث فى دراسته وصولاً إلى الحقيقة ، وأن التاريخ بذلك هو علم نقد وتحليل وليس علم اختبار وتجربة وأن أقرب العلوم الطبيعية شبهاً به هو علم الجيولوجيا انطلاقاً من أن كل من المؤرخ والجيولوجى يدرس آثار الماضى بل أن عمل المؤرخ يمتد ليشمل دراسة وتفسير السلوك البشرى حتى يقترب من الحقائق التاريخية [١١] .

إن الجدل المثار حول أن التاريخ علم أم فن قد استقطب العديد من الباحثين ، وقد سبقت الإشارة إلى رأى هرنشو من أن التاريخ هو المادة والمنهج اللذان يسمحان بصنع ذاكرة الشعوب ونقلها عبر الأجيال [١٢] ، غير أن مفكرى القرن العشرين يغلب عليهم الرأى القائل بأن التاريخ علم ، وأبرز هؤلاء شارل سنيوبوس الذى يؤكد صفة العلم للتاريخ ويفيد قائلاً [١٣] :

" إننا لا نستطيع أن نطلق كلمة « علم » على كل مجموعة من المعارف المحصلة عن طريق منهج وثيق للبحث فى نوع واحد معين من الوقائع التى تتصل بالأحياء من الناس فى « مجتمع » خلال تعاقب الأزمنة فى « الماضى » ، فالعلوم مثل الكيمياء ، والفيزياء والميكانيكا تعمل لاكتشاف قوانين متوالية ثابتة من الظواهر التى هى من « نوع واحد » بصرف النظر عن الأحوال الواقعية من حيث الزمان والمكان لأن هدفها ليس تقرير الواقع ، بل التنبؤ بما سيكون فى أحوال معلومة " .

ويضيف شارل ستيوبوس مقارناً بين العلوم الوصفية وعلم التاريخ ، حيث يرى أن العلوم الوصفية تسعى لمعرفة وقائع Realites جزئية فتبحث كيف تتوزع ، إما فى

المكان وحده مثل علم الجغرافيا وعلم النبات وعلم الحيوان ، أو فى المكان وتوالى الأزمنة مثل علم الجيولوجيا ، فى حين أن علم التاريخ رغم اعتماده فى خصوصيته على عنصرى الزمان والمكان ، فالدولة نسيج خاص ووضع مميز ، فبينما لا تعمل العلوم إلا فى نوع واحد من الظواهر ، فإن التاريخ يدرس فى آن واحد نوعين من الوقائع المختلفة، الوقائع المادية والتى يدخل فى إطارها أفعال الإنسان والأحوال المادية ، ثم الوقائع التى تهتم بطبيعة النفس البشرية وسلوكياً من عواطف وأفكار ودوافع لا يدركها إلا الشعور ، ولما كانت الوقائع التاريخية قد حدثت فى الماضى فإن ملاحظتها مباشرة أمر متعذر ، غير أنه يمكن معرفتها بطريق غير مباشر بدراسة الآثار التى حفظت منها سواء كانت نقوشاً أو أحجاراً أو كتباً (١٤) .

ومن الثابت أن كل عمل تاريخى يستلزم عملية Process سابقة هى جمع مواد المعرفة أى الوثائق بمعناها الشامل الجامع وقد بدأ التاريخ – مثل العلوم الوضعية بأسلوب جمع مادته بما هو كائن فى التاريخ الطبيعى حيث يقوم بهذا العمل أخصائيون فى الحفائر ويحررون الفهارس والاثبات وينشرون المصادر وهذا الدور فى تهيئة جمع مادة علمى النبات والحيوان أو ما يمكن تسميته بعلم الاكتشاف ينطبق بصورة أو بأخرى على المنهج التاريخى Historical Approach .

وإن كان ذلك يقتصر فى الواقع على استخدام كتب المراجع والاثبات Bibliographies فضلاً عن أن الوقائع فى علم التاريخ تعتمد على دعامتين رئيسيتين ، الأولى هى الموضوعات المادية التى كانت على صلة بالمجتمع ، فى حين تقوم الدعامة الثانية على النقول الشفوية التقليدية Traditions أو المكتوبة فى إطار متغيرين أساسيين ينقسم إليهما العلم Science من سلاسل العمليات وهما مشاهدة الوقائع الجزئية يعزلها عن المجموع الذى تنتسب إليه ثم المقارنة بين هذه الوقائع على نحو يسمح بفهم العلاقات القائمة بينهما ، بمعنى أن الإنسان لا يدرك إلا الوقائع المرتبطة

بحواسه، أى الموضوعات والكائنات المحسوسة ثم يقيم العلاقة فيما بعد بين العلة والمعلول .

غير أن علم التاريخ يعمل فى وقائع مختلفة وصعبة فى آن واحد ، فضلاً عن أن وسائله أشد نقصاً من بقية العلوم الأخرى نظراً لأنه عار من أداة للملاحظة أو التجريب وقصره على قوى العقل الإنسانى الذى من المتعذر التنبؤ بسلوكه ، بمعنى أن السلوك الإنسانى بطابعه مضطرب ، غامض متسرع ، فالمسلك الذى تفرضه طبيعة مادة المعرفة فى علم التاريخ هو البدء من الوثيقة باعتبارها الأثر المادى الوحيد عن الماضى ، ثم التدرج فى تسلسل العمليات النفسية : الكتابة ، و اللغة و، والمعنى المجازى والمعنى الحقيقى ، وحتى يمكن الوصول إلى تحديد الواقعة ومعرفتها فإن دور المحاكاة والتقليد لدى المؤلف يؤدى انجازاً متعاظماً يطلق عليه مجازاً بالتحليل الذى يمر بدوره بمرحلتين

الأولى: فصل كل واقعة من الوقائع الجزئية المعروضة اجمالا فى الوثيقة .

والثانية: النقد الذى يعتمد بصفة خاصة على تقدير قيمة المعلومات الواردة ، بمعنى محاولة مدى التوافق بين المعلومات الواردة والحقيقة باعتبار أن النقد Critisism [١٥] ضرورى للوصول إلى الحقيقة .

أما برتراند رسل المفكر البريطانى الذائع الصيت فهو صاحب الرأى القائل بأن التاريخ علم وفن معاً ، وفى هذا الإطار يمكن تقسيم عمل المؤرخين إلى نوعين بحسب غلبة النزعة العلمية أو الفنية التى تعنى المهارة ، فإذا أطلق على العمل التاريخى صفة العلم فقط فإنه يصير ناقصاً . فضلاً عن ارتجالية المعنى وأن هذا الأمر لا ينطبق على الدراسات التاريخية فحسب بل على جميع الدراسات المتعلقة بالظواهر الإنسانية حيث يتعذر الحصول على وقائع مباشرة أو دليل أحياناً ما يكون غامضاً ، أو ناقصاً ، فى حين أن الوقائع السياسية والاجتماعية تتم على وثائق مكتوبة وخاصة فى العصور

الحديثة لأنها تتم بناء على وثائق مكتوبة وتتخذ الدراسات فيها المنهج التاريخى تدريجياً.

أما من حيث أن التاريخ فن أو صورة من صور الفن ، فمن الضرورى تحرى الصدق فى ذكر حقائقه والصدق فى تحرى الحقيقة قاعدة من قواعد الفن ، غير أن صفة الفن هنا تعنى – أيضاً – فى علم التاريخ مدى المهارة التى يتمتع بها الباحث فى عرض الأحداث وتسلسلها وواقعيتها من حيث تتابع التاريخ ، وتماسكه واتصاله وبصوره المختلفة قديمه ووسيطه وحديثه . وأن التاريخ مؤثر وفعال فى المجتمعات وبالتالى فهو علم حى [١٦] يعتمد على المهارة والقدرة على معالجة موضوعاته من حيث أنه « فن » .

وتأسيساً على ذلك يعتبر برتراند رسل أكثر شمولاً فى رأيه من المؤرخين الاخرين ومنهم بيورى الذى يرى أن « التاريخ » علم لا أكثر ولا أقل [١٧] ، وبعض علماء الفلسفة مثل وليم ستانلى جيوفينز الذى ذهب إلى حد الإنكار تماماً بأن التاريخ « علم » واستند هؤلاء العلماء فى آرائهم على أن مادة التاريخ تختلف عن مادة العلوم الأخرى لايمكن تحقيقها ، كما يعجز التاريخ عن اخضاع الوقائع التاريخية للمعاينة أو الملاحظة أو التجريب وأن كل حادثة تاريخية هو شىء فريد قائم بذاته ، وغير قابل للتمحيص العلمى ، وإنه لا يمكن صياغة أي نوع من التعميم أو القوانين العلمية على التاريخ وقد سبقت الإشارة إلى رد هرنشو على هؤلاء المعارضين من أن هذه الأسانيد – حتى مع التسليم بصحتها – لا تجرد التاريخ من صفة العلم ، ومع ذلك فإن هرنشو يتفق مع الآراء السابقة فى كونه علماً ، ولكن ليس علم تجريب واختبار ، بل علم نقد وتحقيق .

وهناك رأى آخر يرى أصحابه [١٨] أنه ينبغى بادىء ذى بدء الاتفاق حول وضع تعريف مبدئى « للعلم » و « للتاريخ » وكلاهما غامض ، وإذا لم يتفق الباحثون على

تعريفهما فلن يكون هناك التقاء ، ويوضح ذلك أن أصحاب هذاالرأى قد ضاقوا بالمناقشة ومع ذلك فهناك اجتهادات من جانب هذا الفريق حول تحديد مفهوم العلم ، فمن ناحية يرى هكسلى Huxely بأن العلم هو كل معرفة تعتمد على الدليل والعقل ، فى حين يرى ألكس هل Alex Hill بأن العلم هو كل معرفة تتم عن الذكاء ، بينما يرى كارل بيرسون Karl Pearson أن وظيفة العلم هى تبويب الحقائق ومعرفة نتائجها ومغزاها .

ويثير أحد الباحثين العرب [١٩] أن ارتباط التعاريف بعلم التاريخ بصفة خاصة يجعل التاريخ لا يخرج عن آرائهم لأنه يعالج أعمال الإنسان الذى لا يتغير والظروف غير المتغيرة ، وهناك تنبوءات علماء التاريخ التى ثبت صدقها لاعتمادها على التجريب والاختبار وهى مقاييس ومعايير ملموسة فى العلوم الاجتماعية عموماً ، الأمر الذى لا يمكن معه تحديد التاريخ من كونه « علماً فضلاً عن أنه علم نقد [٢٠] .

ولعل ما يثبت مصداقية أن التاريخ علم وفن فى الوقت ذاته ما يذهب إليه الدكتور حسن عثمان [٢١] من : « أن دراسة التاريخ ينبغى أن تتم بطريقة وافية ودقيقة صحيحة بقدر ما فى طاقة المؤرخين من جهد وصدق وأمانة وعدل وذكاء وإحساس وفن وذوق » وهو ما يشير إلى ضرورة توافر المهارة والابتكار والاحساس لدى الباحثين فى علم التاريخ بقدر ما يتاح لهم من زمن وامكانيات فى مواطن البحث والدراسة سواء تعلق ذلك ببلادهم أو بالدول الأخرى بشرط أن يكون هدفهم الوصول إلى الحقيقة التاريخية .

ويرتبط ذلك بصورة أو بأخرى بإتاحة الفرصة لمن يكتبون فى علم التاريخ ويجتهدون فى عرض حوادث الماضى ، وهؤلاء يختلفون فى تصنيفهم عن أولئك الذين يظنون أنهم يكتبون تاريخاً ، فهناك العديد من الصفات التى يجب أن تتوفر فيمن يكتب التاريخ ، وقد أوجزها الباحثون [٢٢] فى حب الدرس والجلد والصبر بحيث لا توقفه ندرة المصادر أو غموض الوقائع أو الحقائق التاريخية واختلاط أوراقها ، فضلاً عن ضرورة

عدم التسرع على حساب الحقيقة التاريخية وإنما ينبغى على الباحثين فى علم التاريخ أن يتسموا بالتريث ولا تعوقهم وعورة البحث أو المصاعب والعقبات عن مواصلة الدرس وينبغى على الذين يتسمون بأرقى التصنيفات فى كتابة التاريخ وهم المؤرخون أن يتسموا بالأمانة والشجاعة والأخلاص ، فلا يكذبون ، ولا ينتحلون ، ولا ينافقوا أصحاب الجاه والسلطان ، ولا يخفوا الحقائق والوقائع التى لا ترضيهم أو لا ترضى مواطنيهم فالقاعدة الأساسية فى أنه لا رقيب على المؤرخين سوى ضمائرهم ، فهم بمثابة القضاة فى الكشف عن عيوب الماضى وأخطائه بما يؤدى بالضرورة إلى تجنب عوامل الخطأ فى الحاضر ، بالإضافة إلى حتمية أن تتوافر فى المؤرخ ملكة النقد فلا يجوز له أن يفترض الأمانة في كل وثيقة أو مصدر بغير الدراسة والفحص والاستقراء و بدون ملكة النقد تسقط صفة المؤرخ ، ويصبح مجرد شخص ناقل ، وليس بهذا يدرس التاريخ .

ومن الأهمية بمكان – ما دام التاريخ علماً – أن يكون المؤرخ ذا عقل واع مرتب ومنظم وأن يبتعد عن حب الشهرة ولا يحفل بالكسب والنفوذ الاجتماعى وأن يكرس نفسه لخدمة العلم بدون ضجة ، فالعاكفون للبحث فى مختلف العلوم . ومنهم المؤرخون هم الذين تزدهر بهم الحضارة وتتقدم الإنسانية صوباً إلى الأمام ويستطيع ذلك بالطبع أن يكون المؤرخ محايداً غير متميز متحرراً من الأعجاب أو الكراهية لعصر معين ، وقد سبقت الإشارة أن المؤرخ كالقاضى لا يكون حكمه عادلاً إلا بقدر بعده عن التحيز ، كما ينبغى أن يكون المؤرخ ذا إحساس وذوق وعاطفة وتسامح ، فآثار الإنسان تتحدث إلى قلب المؤرخ فتتجلى فيه روح العلم والفن معاً ، العلم لأنه التاريخ من العلوم الاجتماعية القائمة على التجريب ، والفن الذى يستلزم ضرورة المهارة والحنكة والخبرة فى ثنايا صدى البشر ، وفهم الدوافع التى حركت صانعى أحداث التاريخ لاتخاذ سلوك معين فى ظروف النجاح والفشل [٢٣] .

هوامش الفصل الأول

١- راجع : دكتور حسن محمد سليمان ، المدخل إلى دراسة علم التاريخ ، دار الإصلاح ، الدمام ، المملكة العربية السعودية ١٤٠٤ هـ ص ١٥ – ١٨ .

٢- راجع : دكتور حسن عثمان ، منهج البحث التاريخى ، دار المعارف القـــاهرة ص ١١ – ٢٣ .

٣- راجع : دكتورة فتحية النبراوى ، دكتور محمد نصر مهنا ، مناهج البحث فى علمى التاريخ والسياسة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٣ ص ٢٢ – ٢٩ .

٤- المرجع نفسه ، ص ٢٤ .

٥- دكتور حسن عثمان ، ص ١٢ .

٦- المرجع نفسه نقلاً عن :

Oman, Ch. : On The Writing of History, London, 1939. P. 2.

٧- دكتورة فتحية النبراوى ، دكتور محمد نصر مهنا ، مناهج البحث العلمى فى علمى التاريخ والسياسة ، مرجع سابق ص ٢٨ .

٨- ونظراً لأهمية هذا الكتاب فقد قامت الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية بترجمته ونشره وقد صدر من هذه الترجمة واحد وعشرون جزءاً حتى عام ١٩٥٩ .

٩- دكتور حسن عثمان ، ص ١٥ – ١٧ ، وتجدر الإشارة إلى أن و.س.جينونز (١٨٣٥ – ١٨٨٢) قد درس علم الاقتصاد فى جامعة لندن وله مؤلفات قيمة أخرى مثل المنطق البحثى ، ودراسات فى المنطق الاستقرائى ، وأصول العلم .

١٠- هرنشو ، ف ؛ ترجمة عبد الحميد العبادى ، علم التاريخ ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص٣- ١٤ .

obeikandi.com

١١- المرجع نفسه ص ٧ - ١٣ .

١٢- المرجع نفسه ص ٦ - ٩ .

١٣- سنيوبوس . ش ، لانجلوا . ش ؛ المدخل إلى الدراسات التاريخية ، فى المجلة التاريخية Revue Historique ، يونيو ١٩٤١ - ترجمة عبد الرحمن بدوى ضمن كتاب النقد التاريخى ، القاهرة ١٩٦٣ .

١٤- دكتور حسن سليمان ، ص ٣١ - ٣٤ ، نقلاً عن نفس المرجع السابق .

١٥- المرجع نفسه ص ١٨ - ٢١ .

١٦- دكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، المدخل إلى علم التاريخ ، دار المريخ ، الرياض ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م ص ١٢٨ - ١٢٩ .

١٧- دكتور سيد الناصرى : فن كتابة التاريخ ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٢، ص ٥ - ٩ .

١٨- دكتور حسنين عبد القادر ، فلسفة التاريخ وصلتها بالصحافة ، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة ، مجلد ١٧ الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٥٥ ، ص ٤٠ - ٤٤ .

١٩- المرجع نفسه ص ٤١ - ٤٢ .

٢٠- المرجع نفسه ص ٤٢ .

٢١- دكتور حسن عثمان ص ١٧ .

٢٢- المرجع نفسه ص ١٨ .

٢٣- وتتمثل سمات الاحساس والعاطفة والخيال لمعرفة نوازع صانعى الأحداث التاريخية من التاريخ القديم مروراً بالتاريخ الوسيط وإنتهاءاً بالتاريخ الحديث -

على سبيل المثال – فى أن هذه السمات للمؤرخ تمكنه من تلمس أخبار الأسكندر الأكبر وقيصر وعمر بن الخطاب وصلاح الدين الأيوبى وابن رشد ونابليون بونابرت ومحمد على وأحمد عرابى والعديد من قادة العالم الثالث الذين أثروا فى شعوبهم من خلال التغيير الاجتماعى الذى أحدثوه ومنهم مادتس تونج وغاندى .

٢٤- المرجع نفسه .

obeikandl.com